الجورب الوردي

مجموعة قصصية

obeikandl.com

أنطون تشيكوف

دار المحرر الأدبي

أنطون تشيكوف
للأستاذ خليل هنداوي

من عادة الناس القول: (بأن الإنسان لا يحتاج إلا إلى مترين من الأرض، لكن هذه الحاجة هي حاجة الجثة الهامدة، لا حاجة الإنسان الحي الذي لا يكفيه إلا هذا الفضاء. لا يطلب الإنسان من الأرض قيد أقدام، ولا يطلب مسكناً، وإنما يطلب الأرض بأسرها، والطبيعة بسعتها، لكي تتفتح على آفاقها كل خصائصه ومزاياه بحريته؟)

هذا ما قاله ـ تشيكوف ـ عن أبحاثه ورسالته حين دخل الحياة الأدبية. ولد سنة ١٨٦٠، وبعد أن أنجز دراسته في جامعة بلده أتم دراسة الطب في موسكو حتى غدا طبيباً مشهوراً، لكنه أخذ يسأم هذه الحياة العملية، ويستهويه

عامل الأدب. فنشر عدة أقاصيص في بعض الصحف، وكان يؤجر عليها، لأن موارده في العيش كانت ضئيلة. وقد جمعت قصصه الأولى ولم تكن مما تبعث على الرضا، لأنها قصص كتبت لاجتذاب القراء وتسليتهم في أوقات فراغهم، دون أن تنطوي على فلسفة معينة، أو غاية معلومة. لكن الكاتب سرعان ما تبلورت نفسه، واتسعت آفاق عقله، فترك ذلك الجو الصبياني، ودخل في جو ملؤه دراسة الإنسانية، وهذه الدراسة طوقت روحه بالحزن والكآبة. أضف إلى ذلك أن بلده كان يكابد عناء الحروب في الحرب الروسية التركية، هذه الحرب التي كان ثمنها تحرير بلغاريا مذ أوحت إلى الروس أنفسهم بإدراك حريتهم وأثارت في الشباب العزم للعمل على الوصل إلى هذه الحرية مهما بلغ الثمن وأرهقت المقادير. لكن

هذا الأمل تحطم، وهذه الجهود ذهبت عبثاً، لأن الرجعية قد ظفرت، وبظفرها طارت الأحلام، فعرا النفوس شيء من الذهول أو التحذير، ومن كان في قمة العزيمة والأمل جاء انتكاسه عظيماً، ووشكان ما دب في هذه القلوب النشيطة دبيب اليأس والعجز، فمن القلوب من لاذ بالعزلة لوحده كأنه لا يريد أن يبدي جراحه، ومنها من اعتصم بالعمل ليذهل، ومنها من ظل يرسل الأنين تلو الأنين لعلة يشفى. وهكذا يقال إن ضباباً رمادياً أحاط بحياة القوم، حاملاً معه الكآبة. هذه هي المشاهد التي وقف عليها ـ تشيكوف ـ براعته، ولم تنتج روسيا مثله كاتباً استطاع أن يصور لنا اضطرابات هذه الفئة من الناس التي كانت تمشي خابطة على وجهها بدون فجر ولا رجاء.

يقول أحد أبطاله مفسراً الأزمة الخلقية: (ليس لي من العمر إلا ست وعشرون، ولكن أراني لا أجهل أن الوجود يمشي بلا غاية، خالياً من أي غرض، وكل شيء فيه باطل زائل. تتشابه فيه حياة ساكن جزيرة (سخالين) مع حياة ساكن (بنس)؛ والفرق بين دماغ (كانت) ودماغ ذبابة ما لبيس له قيمة حقيقية، وأن لا شخص في هذا الكون على ضلال ولا على صواب).

وفكرة ـ العدمية ـ بكل ظواهرها المروعة تنعكس كثيراً ما في آثار تشيكوف، وأقصوصة (القبلة) ليست إلا وجهاً من هذه الظواهر. فالعريف (ريابوفيت) بتأثير قبلة غير مقصودة لبث بحلم بالحب طوال صيف؛ فهو ينتظر متألماً ساعة العودة ليرى جميلته المجهولة، لكن حلمه لم يكن إلا وهماً، إذ لم يكن هنالك أحد

ينتظره. وبينما كان في أصيل يوم يسرح على ضفة جدول استسلم لتأملات تتفجر من قلبه: (الماء يفر إلى حيث لا يعلم أحد، ولا لماذا. إنه يفر على الحالة التي مرّ بها في أيار الغابر. إنه عبر من الجدول إلى النهر الكبير، ومن النهر الكبير إلى البحر، ثم إنه تبخّر واستطار، ثم استحال مطراً. فهل أرى ذات الماء يركض جديداً على مرأى من عيني؟! ما غاية ذلك ولماذا؟! وهكذا أصبحت الحياة عند هذا العريف لغزاً معمي لا يدركه العقل، تمشي على غير غاية، هائمة بدون قرار.

وقد أعطانا تشيكوف نماذج عدة لأفراد انتقاهم من بيئات مختلفة؛ فكأنما يأخذ القارئ بيده، يقوده إلى أي مكان يستطيع أن يعرض عليه فيه صوراً من المجتمع الروسي الحديث: في الحقل أو المصنع أو الطريق. وهو بعد ذلك

لا يستقر في موقف، ومهما كانت المواطن التي يرتادها القارئ وراء آثاره لا يخرج منها إلا مشبعاً بهذه العزلة الروسية المؤلمة.

يقدم لنا تشيكوف مثلاً للحبة الضالة فتى كثير الأحلام، يضع رأسه حيث تطلع عليه منه أية فكرة جديدة. قد بحث عبثاً طوال حياته عن شكل عملي يلائم مثله الأعلى الذي يراه، والآن تركه القدر أباً أو ترك له ابنة تكرهه على كسب قوتها وقوته، هو يحب ابنته، ولا يفتأ يردد اللوم لها على كثير من العيوب في حياتها القلقة. في أمسية ساهرة، وجدت امرأة أيم ـ هذه الفتاة العابسة الشاردة، فأخذت تعزيها بكلمات لطيفة، وفي هذه الساعة تحدث الأيمان وشكا كلاهما للأخر ما عنده، وأذاع الرجل عليها قصة حياته كلها، وما ساقه إليه القدر، فاهتمت بحديثه اهتماماً شديداً وأقبل بقلبه

وعاطفته. حتى ليظن الناظر أن القدر لم يجمع بينهما باطلاً، وإنما لأمر يريده في الجمع بينهما، وفي الغد ركبت المرأة العجلة، وكان يساعدها على الركوب، وإن الآذان لتنتظر منهما الكلمة التي يجب أن تجمع ما بينهما، ولكن لم يقل واحد هذه الكلمة. انطلقت العجلة ولبث الرجل جامداً كالتمثال. ينظر بعاطفة فيها فرح وألم إلى الطريق البعيدة التي توارت عليها السعادة التي فرت من بين يديه منذ قليل.

وقصة (الغارة) تقدم لنا مثلاً لعاطفة الخوف الحادة التي تغزو فجأة نفس فتى متكبر اصطدم ببعض الحقائق. فالطالب (فاسيليف) وهو ذو طبيعة حادة دخل للمرة الأولى بيت الهوى ولكنه لم يستطع أن يتحمل التأثيرات المرهقة التي كان يكابدها؛ وغزت رأسه أفكار مظلمة أحاطت به من كل مكان. فكان يصيح آخذاً

برأسه: (أحياء. . . أحياء. . . لو حطمت هذا المصباح لوجدتم أن في هذا شراً، ولكن ـ هنالك ـ ليست المصابيح هي التي تحطم، ولكن حيوات الخلائق البشرية. . . أحياء) ثم أخذ يفكر في وسائل استنفاذ هؤلاء المنكوبات، ويبدو له أن يجلس على قارعة الطريق مخاطباً كل عابر: (إلى أين تمضي؟ ولماذا؟ أخش الله؟) لكن هذه الفكرة سرعان ما غلب عليها الألم والريبة من نفسه، وزاد عليه الألم حتى سحق قلبه، ولكن فتيان مجتمعه لم يتألموا من أجله، وإنما كانوا يعربون غير ملتفتين إليه. فأحس الطالب أن عقله يفلت منه. فقيدوه حتى إذا ما شفى مما هو فيه ذكر عواطفه الأولى، وخجل منها، وهكذا حطم مذهبه، وخفق حلمه.

في الأوساط الاجتماعية، ومرابع العمال يكاد الإنسان يبدو أكثر ابتعاداً عن الأثواب

السطحية والمظاهر الكاذبة. فإن المكافحة المتواصلة ضد الفقر لم تترك فرصة لغيرها. الحياة قاسية تحطم بلا رأفة أحلام السعادة، ولا ندع للإنسان ـ على الأغلب ـ رفيقاً يقاسمه أثقال الهموم والرزايا حتى الصغيرة منها. وقصة السائق تعطينا مثلاً لهذه العزلة، هذا السائق المعدم فقد ولده فلم يأنس في نفسه القدرة على احتمال هذه المصيبة. ووجد فيها ما يدفعه إلى أن يحدث الناس بها. ولكنه كان يبحث عبثاً عمن يستمع إليه. وفي يوم من أيام عمله ألقى نفسه وحيداً مع فرسه فناجاها: (نعم يا فرسي الصغيرة! إنه مات ولدي الحبيب، وتوارى سريعاً من دون علة. لنفرض أن لك مهراً، وهذا المهر مات على حين غرة، ألا يؤلمك فقده؟) أما الفرس فقد رنت إليه

بعينين هادئتين لامعتين، ونفخت من أنفاسها بين يدي صاحبها الذي أنجز قصة موت ولده.

ولتشيكوف قصص رائعة وقفها على وصف الحياة للقروية التي تشبه من وجوه عدة حياتنا القروية. ومن ذلك (القرويون)، فنيقولا خادم في أحد فنادق (موسكو) ساوره داء عياء ووجد نفسه مضطراً إلى مغادرة عمله. وكان كل ما يقتصده يذهب إلى أيدي الأطباء والصيادلة. وعندما يئس من شفائه قرر أن يعود إلى قريته حيث أهله وأخوته، لأنه يؤثر إذا فاتته الحياة أن يموت على مرأى من أهله. لقد تر القرية حين كان فتى ثم لم تقع عليها أنظاره بعد ذلك. عاد هو وزوجه وابنته، فوجد أباه وأمه وأخوين له مع أزواجهما وأولادهما في هوان وفاته، وألقى أن الأسرة كلها تأوي إلى زريبة مظلمة قذرة يرن في أجوائها الذباب؛

فأدرك أن بقاءه في موسكو كان الأجدر به، ولكن هذا أمل خادع لأنه لا يملك أجر العودة. إذن يجب البقاء في هذا اللحد الذي أختاره. وهكذا استقبلتهما هو وزوجه حياة كلها تعب ونكد وشقاء ليس فيها إلا النزاع والصفع والهوان بدون نهاية. إنه يريد أن يعود، لأنه مل هذا الوجود؛ ولكن أني له المال؟ فزادت صحته سوءاً على سوء؛ فوعده صاحب قديم بشفائه، فقام بجملة تجاريب كانت القاضية عليه. وقضت زوجه من بعده شتاءها في القرية مع ابنتها. فأسرع دبيب الهم بخطوط الكهولة إلى وجهها الذي كان يحار فيه ماء الشباب، ومالت قامتها، وتبدلت حالتها. ومن ذا الذي يبقي على الهم؟ أقبل الربيع والأم وابنتها تدخلان الكنيسة ثم تزوران ضريح فقيدهما، ثم تطوفان سائلتين في الطرق! وتشيكوف نفسه

يقول: (إن حياة عمالنا هي سوداء تمشي في طريق الفسق، أما حياة الشعب: عماله وفلاحيه، فما هي إلا ليل مدلهم ملؤه الجهل والفقر والألم).

إن تشيكوف ببراعته الفائقة، ونظراته الشخصية، يصف الحياة الإيجابية والسلبية؛ وهو ليس بذي طبيعة هجائية، لأن كتابته يغمرها العطف العميق. وهو لا يسخر من أبطاله، وإنما يشفق عليهم. عبقريته هادئة، مفكرة، عميقة، ولكن يخيل أحياناً أن هذا الهدوء ليس إلا قناعاً. وقد قال ناقد فيه: (إنه قلم ذو حنان) وهو في قصصه ينبوع فياض، لا ينفذ له موضوع، ولا يغتر له تحليل برغم بساطته. وهو لا يُعنى بالإسهاب الكثير، والاستطراد البعيد، لأنه يكفيه أن يطرق الجانب الحي من الموضوع.

جرب تشيكوف الكتابة المسرحية، وله منها القوى المتين، ومن ذلك مسرحية (الأخوات الثلاثة). هؤلاء كن يقضين حياتهم في بلدة حقيرة تبعث على السأم، خالية من الرجال اللامعين، وليس فيها إلا من تشابهت وجوههم، وتشاكلت نفوسهم، كأنهم نسخة واحدة تكررت نسخاً. وكان حل هؤلاء السفر إلى موسكو، لكن بلادتهن قضت عليهن بالبقاء، فليتهن يتناقشن ويتجادلن متفلسفات في مواضيعهن. وقد اتفق أن نزل المدينة ثلة من الجند، فماجت فيهن الحياة، وكان لهن حوادث حب مع العرفاء دامت حتى يوم الرحيل.

قالت الكبرى: إنهم رحلوا. . . سنبقى وحدنا! والحياة الساكنة ستبدأ.

فقالت الثانية: إنما يجب العمل، لا شيء يعوزنا إلا العمل!

وقالت الثالثة معانقة أختيها في حين راحت الموسيقى العسكرية تعزف لحن الرحيل: يا أُختيَّ! إن حياتنا لم تنته بعدُ إننا سنحيا.

هذه الموسيقى تصدح طربة. . . رويداً رويداً! إنني أُحس به. . . سنعلم غداً لماذا نحيا ولماذا نتألم!

هذه ناحية قوية من نواحي فلسفة تشيكوف البسيطة، وهي بمجموعها تنم عن (عجز عن الحياة مشوب بأمل مبهم. . .)

إن تشيكوف في الحقيقة منحة الأدب الروسي، وغرسة لم تتعهدها إلا تربة عرقه. ففي نزوعه إلى الحرية ترن ألحان تولستوي؛ وفي ميله إلى شراء الماضي بالألم يلوح وجه

(دوستوفسكي) كأنما آثار كبار الروس تتبين خلال سطوره.

وقد يشبه تشيكوف من نواح عدة (موباسان) و (إيبسن) لكنه لا غموض ولا إبهام فيه، لأن الغموض النرويجي لا يلائم روح الأدب الروسي الذي ينزع إلى مجابهة المسائل الملعونة في الحياة مجابهة صريحة عنيدة. ولقد حار في تحديد قيمته النقاد فمنهم من وصفه بأنه كاتب (خلى) لأن كتابته لا تدعو إلى الثورة التي برزت في بعض آثار غيره، ومنهم من وجد فيه متشائماً لا يتفاءل في شيء من الحياة الروسية، لأنه ملتفت إلى وصف الآلام أو الجهود النازعة إلى طلب حياة تكون أحسن أثاثاً ورئياً.

ولعل في الرجوع إلى بعض سطور له ما يفيدنا في توضيح صفات هذه الشخصية الفذة،

ومما يقوله: (إنني أخاف أولئك الذين يفتشون عن ميول ورغبات خفية بين السطور، وأولئك الذين يريدون أن يجدوا فيَّ محرراً أو محافظاً. . إنني لست من ذلك في شيء. . . لست بالمحرر ولا بالمحافظ، ولا بالراهب ولا بالخلي، وإنما أنا رجل أمقت الكذب والصولة في أي مكان وتحت أي مظهر. . . لا أريد أن أكون إلا فناناً. . . وهذا كل شيء) ولكن هذا الفنان الحر الذي أبغض الكذب والصولة في المعنى الذي تفهمهما لم يستطع أن يكون إلا محرراً للإنسان بأوسع معنى للتحرير، ولم يكن بذلك المتشائم الذي تمثلوه، لكنه كان كاتباً يتألم لمثله الأعلى، ويوقظ بكتاباته الأمل في الخروج من غسق الحياة التي وصفها. وقد تبدي في بعض مراحله أنه مؤمن بمستقبل الإنسان والإنسانية، فيقول في محاورة له

لبستانه: (أتعلم بعد جيلين أو ثلاثة أن الأرض ستصبح بستاناً زاهراً وإذ ذاك كم تغدو الحياة جميلة؟) وهو الذي يقول بأن الإنسان قوة الأرض المركزية (وينبغي للإنسان أن يعلم أنه أسمى من كل ما في الطبيعة. . . . إننا أكوان سامية عظيمة؛ وحين يتسنى لنا أن نعرف كل قوى العبقرية البشرية تغدو قرناء للآلهة)

لكن هذه الآمال الكبرى لم تحل بينه وبين وصف عجز الإنسان في كل زمان ومكان، فهل تأتي ذلك منه بطريق المناقصة؟ نقول: لا، لأن تشيكوف إذا لم يشك لحظة في تقدم الإنسانية فإنه ليتألم، ويبعثه على الألم تشاؤمه الأسمى للنزاع إلى السمو؛ وهذا التشاؤم الإنساني تجاه ما يخور العقل أمامه عجزاً، وهذه العاطفة تتألم وتيأس إزاء خبط الحياة وعصف الموت.

يقول أحد أبطاله : (إني إذا ما خشيت الحياة ولم أفهمها ، فعندما أرقد على بساط من الأعشاب . وأتأمل طويلاً في حشرة ولدت في مطلع الليل ، لأتفهم شيئاً من وجودها . يخيل إلى أن حياتها ليست إلا مرحلة من الرعب والذعر ، فيها أرى نفسي ، وأتمثل خاطراتي . . كل شيء يروعني لأني لا أفهم العقل ولا نهاية الأشياء . لا أفهم شيئاً ، ولا أدرك أحداً . . . أما أنت فإذا كنت تفهم فأحر بي أن أهنئك .) و (حين ينظر الإنسان طويلاً في السماء الزرقاء المترامية ، فالأفكار المنبعثة والنفس تتحد اتحاداً خفياً في عاطفة عزلة عميقة ، وخلال لحظة واحدة يشعر الفكر بوحدة الموت ولغز الحياة اليائسة المروعة) .

إن هذا اليأس الشامل ، وهذا الشقاء الذي تحدث عنه تشيكوف يتمثلان في آثار كل

الشعراء والفنانين الروس البارزين. ومن منهم لم يرسم الحياة بهذه الخطوط المجعدة، ولم يجعل فؤادها مغموراً بهذا اليأس!

على أن تشيكوف ـ بما أوتي ـ رأى وأدرك وجهي الحياة: وجه تقدمها التاريخي والاجتماعي، ووجهها الآخر الذي يحيط بها من كل ناحية: هذا الوجه المظلم المجهول الغائم تحت أنفاس الموت الباردة.

obeikandl.com

الجورب الوردي

أخذ السحاب الجون يتكاثف حتى حجب السماء، وطبق الأرض، وأرسل المطر هتانة، حتى أصبح إقلاعه بعيداً أمده. فجاء اليوم عابس الوجه. لا ترى في أرضه غير البرد الساقط، وطير الزاغ ويبلله القطر، وفي داخل المنازل امتد غبش الليل واشتد قارس البرد حتى أمسيت تشعر بالحاجة الشديدة لحرارة المدفئة.

كان بافيل بتروفيتش سوموف يروح ويغدو في مكتبه متأففا من الجو متبرما به، فسفعات المطر للنوافذ والظلام الشامل للغرفة حملاه على الاستياء الشديد والتذمر المر، ولقد كان ضجره لا يحتمل وما كان في يديه ما يشغله. . فالجريدة لم تصل إليه حتى الساعة والصيد

متعـذر حصـوله، صـعب بلوغـه، ومـا كـان الوقت وقت عشاء.

لم يكن سوموف وحيداً في غرفة عمله، فقد جلست إلى مكتبه مدام سوموف وهـي حسـناء نحيلة في غلالة بيضاء وجورب وردي، وكانـت منهمكة في تحبير رسالة، وكان إيفان بتروفيـتش عندما يحاذيها في جيئته وذهابـه ينظـر مـن وراء كتفيها ما تكتـب فـيرى حروفـا كـبيرة ودقيقـة وضيقة منمقة غاية التنميق! لها ذيول وبها كثير جـدا مـن الطمـس والمسـح والتلويـث وأثـر الأصابع، وكانت مدام سوموف لا تحب الورق المسطر، وكل سـطر تكتبـه ينحـدر بتعرجـات قبيحة حتى ينتهي إلى الهامش.

سأل سوموف زوجه حين رآها تبدأ الكتابـة في الصـفحة السادسـة (لمـن تكتـبين مثـل هـذه الرسالة الضافية يا ليدوتشكا؟)

ـ إلى الأخت فاريا

ـ أوه! . . خطاب مسهب . . أنني ضجر . دعيني أقرأه .

ـ لك أن تقرأه . . بيد أنه لا يلذك

تناول سوموف الصفحات المكتوبة وهو يذرع أرض الغرفة وأخذ يقرأ . .

ارتفقت ليدوتشكا على ظهر كرسيها وجعلت ترقب ما على وجهه من تعابير . . استطال وجهه بعد الصفحة الأولى وظهرت عليه ملامح الرعب! ! وفي الصفحة الثالثة قطب جبينه وحك مؤخر رأسه، وفي الصفحة الرابعة أمسك عن القراءة ونظر بوجه المرتاع إلى زوجه . . وتظاهر بالتأمل . وبعد تفكير قليل تناول الرسالة ثانية وهو يتأوه وعلى وجهه أثر الارتباك والحيرة ثم الإرجاف والفزع .

لما فرغ من قراءة الرسالة قال متمتما: (حسن!.. هذا لا يجوز! ورمى بالأوراق على المكتب، هذا لا يصدق، ما في ذلك ريب..).

فسألته ليدوتشكا وقد امتقع لونها: ما الخبر؟

ـ ما الخبر؟ تملئين صفحات ستا وتمضين ساعتين في خرفشة لا معنى لها ولا طائل تحتها.. ولا شيء فيها بالمرة.. آه لو كان بها ولو فكرة ضئيلة! يقرأ المرء ثم يقرأ وفكره مشوش، وذهنه مضطرب كأنما يفك أغلاقا صينية عن صناديق شاي! أوه!

قالت ليدوتشكا وقد ضرج وجهها الحياء: هذا صحيح يا فانا.. كتبته دون عناية

ـ أجابها: إهمال زائد عن الحد.. ففي رسالة غير منمقة ولا محبرة.. معان وأسلوب.. وإحساس، أما رسالتك

فسامحيني، ان قلت لك بأني لا أتذوق لها طعما. . جمل وكلمات لا إحساس فيها ولا معنى لها. خطابك جميعه. . كمحادثة بين صبيين (عندنا عجة اليوم. . جاء جندي ليرانا. .) انك تكررين المعنى الغث البارد، لك أن تريه وتعيديه بنفسك. أما الفكرة السخيفة فترقص بين السطور كالشياطين ولا حد عندك للبدء من النهاية. . كيف تكتبين هكذا؟

قالت ليدوتشكا تدافع عن نفسها: إذا كنت أكتب بتجويد وعناية. . لا يمكن أن تكون هناك غلطات.

فأجابها زوجها: إنني لا أتكلم عن الأخطاء. . الأخطاء النحوية المروعة. لا يوجد سطر لا يعد إهانة شخصية للنحو. لا وقف ولا علامات ولا هجاء! إنه يأس مريع!

إنـني لا أمـزح يـا ليـدا فأنـا مـروع فـزع مـن رسالتك، لا تحزني يا عزيزتي فمـا كنـت أظـن في الواقع أنك تجهلـين النحـو هكـذا. . . مـع أنـك تنـتمين إلى بيئـة مثقفـة ودرجـت في بيـت علم. فأنت زوجة رجل جـامعي وابنـة قائـد. قولي لي أذهبت إلى المدرسة؟

ـ نعم لقـد تعلمـت في مدرسـة فـون مبكـي الداخلية.

فهـز سـوموف كتفيـه واسـتمر في مشـيته متأوهـا. . . أمـا ليدوتشـكا العالمـة بجهلـها فتنهدت ثم نكست رأسها. مرت عليهما دقائق عشر ما نطقا فيها بحرف.

وقف سوموف فجأة أمامها ونظر إلى وجهها برعب وقال: إنك تعرفين يا ليدوتشكا أن الأمر جـد! أنـك أم!. . . أتفهمـين؟. . أم!. . كيف تعلمين بنيك إذا كنت لا تفهمـين شـيئا؟

أنك ذات عقلية خصبة وذهنية نيرة. . . ولكن ما جدوى ذلك إذا كنت تجهلين كل شيء. فلا تعرفين شيئا من الآداب ولا من العلوم على أننا سنغض النظر عن المعارف، لأن الأطفال سيتعلمون ذلك في المدرسة، ولكنك تعرفين ضعفك في الأدب وبلادتك فيه، تستعملين في بعض الاحيان لغة تجعل أذني في طنين!

ثم هز سوموف كتفيه مرة أخرى وجمع إليه ثوبه واستمر في سيره. . . شاعرا بالغيظ والحنق، وفي الوقت نفسه آسفا على ليدوتشكا التي لم تحتج ولم تعترض، ولكنها اكتفت بأن ترمقه من طرف خفي. وأحسا معا بالضيق الجاثم على قلبيهما، والهم المتمكن من نفسيهما، حتى أذهلهما الحزن عن كل شيء فلم يدريا كيف مر الزمن وكيف قربت ساعة العشاء.

ولما جلسا للطعام شرب سوموف المولع بالطعام الشهي الهني قدحا كبيرا من الفودكا وشقق الحديث فأداره على وجوه أخر. وكانت ليدوتشكا تسمع لما يقول مسلمة راضية. بيد أنها وهي تشرب الحساء أخضلت عيونها بالدمع ثم خنقتها العبرات.

فنهنهت دمعها بمنديل وقالت: (إنها غلطة والدتي! نصحها جميع الناس بإرسالي إلى مدرسة عالية، ومن هناك كنت على يقين من ذهابي إلى الجامعة).

فتمتم سوموف (الجامعة! . . . مدرسة عالية! . هذا كثير يا بنيتي! ما الفائدة من أن تكوني احدى ذوات الجورب الأزرق! الجورب الأزرق هو الشيطان الرجيم في نار الجحيم!! لا يمسي صاحبه رجلا ولا امرأة، وإنما يكون شيئا

بين بين، أني أبغض من كل قلبي الجوارب الزرقاء. . . ولن أتزوج امرأة متعلمة).

فأجابته ليدوتشكا! لا أدري كيف أفهمك؟ تغضب لأني لست متعلمة وفي الوقت نفسه تكره النساء المتعلمات! لقد تنكرت لي وسخرت بي لأن رسالتي كانت خلوا من كل فكرة، فارغة من كل معنى، ومع هذا فأنت تعارض في دراستي ولا تستحسن تعلمي.

ـ لقد أصبت شاكلة السداد يا عزيزتي. قال هذا سوموف وهو يتثاءب ثم ملأ قدحا آخر من الفودكا.

تحت تأثير الفودكا والطعام الجيد أصبح سوموف أكثر رقة ودماثة. أخذ يرقب باهتمام زائد زوجه الحسناء وهي تعمل التوابل. فغمره فيض من الحنان المحض والحب الشديد، ودفعته عاطفة ملحة إلى النسيان والتسامح، ثم

أخذ يحدث نفسه ويلومها : إنها غباوة مني أن أغضب هذه الفتاة المسكينة! ما الذي حملني على الجهر بكل هذه الأشياء الجارحة. إنها غبية، ذلك حق. . غير مثقفة. . سطحية. . بيد إن للمسألة وجهين. . . . . .

(والوجه الآخر مفهوم.). . . . ربما يكون الناس على حق عندما يقولون أن سطحية المرأة ترجع إلى حرفتها. ومن المسلم به أن من عملها أن تحب زوجها وتربي أطفالها، ثم تصنع التوابل!! فما الذي ترجوه من التعليم؟ لا شيء على التحقيق.

وهنا ذكر أن النساء المتعلمات غالبا مملات يبعثن الضجر والسأم في النفس، ثم هن دقيقات صارمات عنيدات. ولكن ما أيسر توفيقك مع الغبية ليدوتشكا التي لا تشمخ بأنفها. . ولا تصعر خدها ولا تفهم كثيرا. .

أنه السلام والراحة مع ليدوتشكا ولا خطر منها على المرء أبدا: (لعنة الله على أولئك النسوة البارعات المتعلمات! ولخير للمرء وأحسن عقبى أن يعيش مع الساذجات منهن). ثم دار بخلده وهو يتناول صحنا من لحم الفروج من ليدوتشكا أنه في بعض الاحيان قد يشعر الرجل المثقف بالرغبة الشديدة في الحديث ومبادلة الأفكار مع امرأة حاذقة كاملة التعليم. ولكنه قال: (ما هذا) إذا رغبت في التحدث عن موضوعات عقلية. . . فسأذهب إلى (ناتالا أندريفنا) أو إلى (ماريا فرانتسوفنا)، هذا سهل جدا. . . ولكن لا. لن أذهب فالمرء يستطيع البحث فيالأمور العقلية مع الرجال. ثم قطع بهذا أخيراً!!!

صه!

يعود ايفان كراز نوكين، وهو محرر متوسط في صحيفة يومية، دائما لمنزله في ساعة متأخرة من الليل مكتئبا حزينا، على سحنته الوقار وفي مشيته الجلال. وأحيانا تراه جامعا أشتات فكره مستغرقا بكليته في تصوره كأنما يترقب أن يفتش أو يفكر في الانتحار. ذرع عرض غرفته، ثم توقف ونفش شعره وقال في لهجة (لابرتس) منتقما لأخته (إنني حائر تعب ملتاع إلى ابعد قرارات النفس. إن الحزن يجثم على قلبي، ويهيمن على جسمي، ومع هذا فلزاما علي أن اجلس لأكتب. . وهذا ما يسميه الناس (العيش).

ليت شعري لم يصف كاتب حتى اليوم هذا الخبل الذهني المؤلم، وهذا الاضطراب الفكري الشديد الذي يعذب روح المؤلف ويؤلم نفسه.

فعندما يكون حزينا حزنا يذيب لفائف القلب، يجب عليه أن يبعث الجمهور على الطرب المستخف والسرور العظيم. وعندما يكون فرحا يثلج الصدر ويبهج القلب يجب عليه أن يرسل الدمع الهتان وينفث الحزن الدفين.

أجل! يجب علي أن أكون مرحا مستهترا لا أكترث لشيء ولا أحفل به. مليح النكتة بارع الدعابة عندما ينوء بي الهم ويقتلني الحزن. حتى إذا كنت (دعني أقول) مريضاً. . . إذا كان طفلي في نزعه الأخير. . . وكانت زوجي تنهشها الأحزان وتفترسها الآلام لما فرغ من قوله هز جمع يده وأدار حماليقه.

ثم دلف إلى المخدع وأيقظ زوجه. وقال: (ناديا!.. سآخذ في الكتابة. أرجو أن تحرصي على ألا يقاطعني أحد أو يمنعني من العمل إنسان. فما أستطيع الكتابة والجدي ينب والطاهي يغط! ثم قدمي أيضاً بعض الشاي وشريحة من اللحم، إذا أمكن، فأنت تعرفين أني لا أوفق إلى الكتابة إلا إذا شربت شايي، فالشاي وحده هو الذي يبعث في القوة على العمل.)

أخذ سمته إلى غرفته وخلع معطفه وصدريته وحذاءه. نضا عنه ثيابه بتأن تام. ثم كون ملامح وجهه حتى أصبحت تعبر عن الإنسان البريء المعذب (وجلس إلى مكتبه)

على هذا المكتب لا تقع عين الإنسان على حقائر الأشياء اليومية وصغائرها. فكل الأشياء وأتفهها تنقلب ذات معنى، ويظهر

عليها برنامج عابس! هنا تماثيل نصفية وصور شمسية لمؤلفين عظيمي الشهرة ذائعي الصيت. وهناك كوم من المخطوطات ومجلد بمؤلفات بلينيسكي ومنه صفحة مقلوبة. ثم عظام رأس تستعمل محبرة وصفحة من جريدة طويت كما يتفق، بيد أنها تعرض عمودا معلما عليه بالقلم الأزرق بالخط العريض (جبان) وهناك جمهرة من الأقلام المبرية حديثا وريش بأسنان جديدة حتى لا يمكن لأي سبب خارجي أو حادث عارضي أن يمنع التحليق السامي لهذه المخيلة المبدعة!!

ألقى كرازنوكين نفسه على كرسيه المريح وراح يفكر في موضوع فسمع زوجه تضرب الأرض بخفها تشقق قطع الخشب (للسيماور) وخيل إليه أنها مازالت وسنانة لأن غطاء السيماور أو رجله كان يسقط من يدها بين آونة

وأخرى. ووصل إلى سمعه نشيش المغلاة وأزيز اللحم المقلي، وزوجه مازالت تشق الخشب مفرقعة قرب الموقد. مغلقة بشدة باب الفرن مرة، وأخرى النافذة الهوائية، وآونة أخرى باب المدفئة. فأرتجف كرازنوكين، وفتح عينين يملؤهما الرعب ويتطاير منهما الشرر. وأخذ ينشق الهواء ويلهث (رحمتك الهم! . . . دخان الفحم؟ . . . هذه المرأة التي لا تطاق عزمت على خنقي. . قل لي بالله كيف أوفق للكتابة في حالات كهذه؟)

جرى إلى المطبخ يولول وينوح، وبعد برهة عادت زوجه تمشي على أطراف أصابعها مقدمة له قدحا من الشاي فوجدته جالسا على كرسيه الطويل كما كان من قبل! لا يبدي حراكا ولا يحرك جارحة غارقا في موضوعه، فلم يتحرك، وأخذ ينقر بخفة على جبهته بأطراف أصابعه

متظاهرا بأنه لا يلاحظ وجودها ووجهه يعبر مرة ثانية عن : (البريء المعذب)

قبل أن يكتب العنوان أخذ يتملقه ويدلله مدة طويلة! كأنه عذراء أهداها بعض الناس مروحة جميلة! آونة يمر بيديه على صدغيه وأخرى يرتجف ويهتز جميعه ساحبا قدمه من تحت كرسيه كالمتألم. مغلقا نصف عينيه بفتور كقطة على فراش.

وأخيرا بعد تردد دنا من الدواة وسطر العنوان وكأنه يوقع صك الموت. . . .

سمع صياح ابنه (ماما! . . قليل من الماء)

فأجابته أمه (صه! . . بابا يكتب. . . صه!)

كان الأب يكتب بسرعة مدهشة دون توقف، دون أن يمحو حرفا أو يشطب كلمة وليس عنده من الوقت ما يتسع لقلب

الصفحات أما التماثيل النصفية والصور الشمسية لمشهوري المؤلفين فكانت ترقب يراعه الجوال وقلبه السيال وكأنها تفكر (اها . . . أخواه استمر . . . .)

خدش القلم (صه)

فجلجل المؤلفون وقد اهتزوا بدفعة من ركبة الكاتب (صه) عاد كرازنوكين إلى نفسه ووضع قلمه وتسمع . فسمع همسات متزنة لا تنقطع . وكان ذلك صوت فوما نيكوليتش الساكن معهم وهو يصلي في الغرفة المجاورة .

فناداه كرازنوكين (أعرني سمعك! . أما تستطيع الصلاة بأسرع من هذا؟ . . انك تحول بيني وبين الكتابة)

فأجابه فوما نيكوليتش بحياء ووداعة (أستمحيك العفو يا سيدي) (صه!)

بعد أن كتب صفحات خمساً تمدد ونظر إلى الساعة وتأوه. (يا للسماء!.. الساعة الثالثة!.. الناس جميعا مستريحون نيام... وأنا وحدي.. أنا.. يجب علي أن أعمل)

بعد أن استفرغ العمل جهده وأفنى قوته أخذ طريقه إلى المخدع ضارع الجسم، واهن القوى ورأسه ساقط على عاتقه. أيقظ زوجه صائحا بها مكدود الصوت (ناديا... قدحاً آخر من الشاي... إني... إني أشعر بضعف)

كتب إلى الساعة الرابعة وود لو استمر في كتابته إلى الساعة السادسة بيد انه أنجز عمله وفرغ من موضوعه.

زهوه العجيب وفرحه الغريب بهذه الأعمال الجامدة ولا بصيرة عنده ولا فراسة له! استبداده وجوره، عسفه وظلمه، في مسكن النحل

الصغير التي خولت له الأقدار السلطان عليه وأعطته مقاليد الأمر فيه. هذه عنده أطايب الحياة وزبدة ما فيها.

كم يشابه هذا الاستبداد الذي تراه في المنزل هذه الأجناس الذليلة الصامتة التي يخالط كلامها التورية والتي اعتدنا رؤيتها في مكاتب الصحف.

قال لنفسه وهو ذاهب لفراشه (إني تعب جدا حتى يخيل إلي إنني لن أستطيع النوم. . .

فعملنا الجهنمي الذي لا نلاقي منه جزاء ولا شكورا لا يجهد الجسم كما يجهد القريحة، على إنني سأتناول مقويا. . والله يعلم لو لم يكن هذا لخير الأسرة لنفضت منه يدي. . . . . أه. . انه مرعب أن يكتب الإنسان ويجبر على العمل هكذا!!)

استغرق في سبات عميق . . . فنام حتى الساعة الواحدة أو الاثنتين بعد الظهر ، وما الذي كان ينامه أطول أو يحلمه ألذ . إذا كان مؤلفا مشهورا أو محررا بارعا . أو حتى ناشرا؟

همست زوجه بوجه مرتاع (كتب سحابة الليل! . . صه!)

ما جرؤ أحد على الكلام أو السير أو التصويت فنومه مقدس ومن يذنب فيقطع هذا السكون ويشوش هذا الهدوء ، فعليه أن يدفع عن هذا غاليا .

(صه! . . . صه!)

ورن هذا الصوت في جميع الحجرات

obeikandl.com

من غير عنوان

كانت الشمس في القرن الخامس عشر تشرق كل صباح وتغرب كل مساء كما هي اليوم. وحينما تقبل أشعتها الأولى ندى الأرض تنفض هذه عنها غبار الكرى، وتشيع في الدنيا البهجة وتحلو الأماني! وتعود الأرض في المساء إلى سكونها ثم تغوص في غياهب الليل. وقد ترى أحياناً سحابة راعدة تلوح، ويقصف الرعد وهو يزمجر، أو تهوى نجمة من شاهق وهي وسنانة، أو يقبل راهب حثيث الخطى شاحب اللون ليخبر رفاقه بأنه رأى نمراً قريبا من الدير. كان هذا كل شيء، ثم تعود ثانية الأيام تشابه الأيام، والليالي تحاكي الليالي.

كان الرهبان يصلون ويعملون: أما رئيس الدير فيعزف على الأرغن، ويقرض الشعر

اللاتيني، ويؤلف النغم الموسيقى. وكان للكهل الحلو الوديع ذكاء نادر وسجايا حميدة. فهو يعزف على الأرغن ببراعة، حتى أن معظم الرهبان القدماء الذين يضعف سمعهم كلما قربت نهاية حياتهم ما كانوا يستطيعون أن يحبسوا دموعهم كلما هفا صوت أرغنه من صومعته. وعندما يتكلم ولو عن الشؤون العامة كالشجر والوحوش الضارية والبحر الخضم، لا يسمعه إنسان دون أن ترى دمعة تترقرق في عينيه، أو بسمة ترتسم على شفتيه، فيخيل اليك أن الأنغام التي تتجاوب في الأرغن هي بعينها التي تعتلج في نفسه. وحينما يهيجه غيظ متمكن، أو يأسره فرح شديد، أو يتحدث عن أشياء مروعة تأخذه نشوة قوية، ويتسايل الدمع من عينه اللامعة، وتضرج وجهه الحمرة، ويدوي صوته كالرعد. هنا

يحس الرهبان المستمعون أن أرواحهمتذيبها عظمته وأنها تفنى فيه. لقد كانت قوته في هذه الدقائق العظيمة العجيبة لا تحد، فلو أمر شيوخ الدير أن يقذفوا بأنفسهم في البحر لاستبقوا اليه مسرعين.

كان موسيقاه وصوته وشعره الذي يمدح به الله منبعاً لسرور الرهبان لا ينضب. ففي مدة حياتهم الرتيبة تنقلب الأشجار والأزهار والربيع والخريف إلى أشياء مملة، ثم يقلقهم هدير اليم الزاخر، ويصبح شدو الطير مملول النغم مرذول الجرس. ولكن سجايا رئيسهم كانت لهم بمثابة القوت المحيي والقوة المجددة.

كرت السنون ومازالت الأيام تشابه الأيام، والليالي تحاكي الليالي وما دنا من الدير أحد اللهم إلا ضواري الوحش وجوارح الطير. وكانت أقرب المساكن الإنسانية بعيدة جداً.

ولا تصل اليها من الدير أو تصل إلى الدير منها حتى تعبر صحراء ذرعها مائة ميل.

والذين يجرءون على القيام بهذا هم أولئك الذين لا يجعلون للحياة قيمة ولا يقيمون لها وزناً، والذين نبذوها وراءهم ظهرياً ونفضوا أيديهم منها جملة. يولون وجوههم شطر الدير وكأنهم يسيرون إلى القبر.

ولشد ما كانت دهشة الرهبان عند ما قرع بابهم في ليلة من الليالي رجل برهن لهم على أنه من سكان المدينة: وكان هذا الرجل أكثر الناس ارتكاباً للإثم وحبا للحياة. وقبل أن يصلي أو يرجو رئيس الدير أن يباركه طلب طعاما ونبيذا.

فلما سألوه عن سبب قدومه من المدينة إلى الصحراء قص عليهم قصة طويلة: خرج يطلب الصيد ومعه شراب كثير فضل الطريق،

وعند ما أشاروا اليه أن الواجب عليه أن يمسي راهباً أجابهم في ابتسام: (لست لكم بصاحب!)

شرب واكل ملء بطنه، ثم رفع بصره إلى الرهبان الذين يقومون بخدمته وهز رأسه لائماً وقال:

(إنكم معشر الرهبان لا تعملون شيئا، كل ما تعنون به هو طعامكم وشرابكم، هل هذه هي الطريقة لخلاص أرواحكم؟ فكروا الآن! بينما أنتم تعيشون في هدوء هنا، تأكلون وتشربون وتحلمون بالخيرات والبركات إذا بإخوانكم هناك قد كتب عليهم عذاب الجحيم، انظروا ما الذي يحدث في المدينة! بينما بعض الناس يموتون جوعا، إذا بالآخرين لا يعرفون أين يبذرون الذهب، ينغمسون في الدعارة ويهلكون فيها كما يهلك الذباب في

العسل، ثم لا صدق ولا إخلاص بين الناس. من الذي يجب عليه انتشالهم مما هم فيه؟ أأنا الذي أروح صريع الكأس من الصباح إلى المساء؟ هل أنعم الله عليكم بالخلاص، ومنَّ عليكم الحب، وحباكم بالقلوب الرحيمة، لتجلسوا هنا بين هذه الجدران الأربعة ولا تعملون شيئا؟!).

ومع أن كلام الرجل السكير كان ينطوي على الجرأة والقحة فقد أثر تأثيراً غريبا في رئيس الدير فنظر هو والرهبان بعضهم إلى بعض ثم قال رئيسهم بوجه شاحب (إخواني انه محق. فصحيح أن الحماقة والضعف البشري جرفا الإنسانية التعيسة في تيار الجحود والإثم فأهلكاها وقضيا عليها. وها نحن أولاء لا نريم من هذا المكان كأن لا عمل لنا ولا واجب

علينا . لماذا لا أذهب إليهم فاذكرهم بالمسيح الذي نسوه؟) .

نالت كلمات رجل المدينة من نفس رئيس الدير ، ففي اليوم التالي أمسك بعكازه وودع إخوانه ، وركب الطريق إلى المدينة ، فأمسى الرهبان لا ينعمون بموسيقاه ولا بحلو حديثه ولا برائع قريضه .

ترقبوه شهراً ثم شهرين فما عاد ، وأخيرا في نهاية الشهر الثالث سمعوا نقر عصاه المألوف فخف الرهبان لملاقاته وأمطروه بالأسئلة ، ولكنه بدلا من مشاركتهم في حبورهم بكى بكاء مراً وما نبس ببنت شفة . رأى الرهبان أنه أصبح نحيلاً وأن أعراض الكبر قد بدت على ملامح وجهه .

فما تمالك الرهبان وقد رأوا منه ذلك أن أجهشوا بالبكاء وسألوه عما يبكيه ، فما

أجابهم بكلمة وغادرهم موصدا عليه بابه ومكث في صومعته. لبث فيها خمسة أيام ما شرب فيها شرابا ولا طعم طعاما ولا عزف على الأرغن. ولما طرق الرهبان عليه بابه وألحوا عليه في الخروج ليشاركوه في أساه كان جوابه الصمت العميق.

خرج من معتكفه أخيرا وجمع حوله الرهبان وأخذ يقص عليهم ما حدث له خلال الشهور الثلاثة التي خلت والدمع ينضح وجهه والألم يأكل قلبه، ثم هدأت نفسه وتهللت أساريره حينما أخذ يصف لهم رحلته من الدير إلى المدينة. غنى الطير وخر الجدول على جوانب الطريق، وجاش صدره بالأماني الحلوة والآمال المعسولة. شعر بانه جندي يتهيأ لاقتحام الموقعة والوصول إلى النصر المحقق. سار حالما يقرض القصيد ويصوغ النشيد،

وسرعان ما وجد نفسه في نهاية الرحلة. على أن عيونه أومضت باللهب، ونفسه جاشت بالغضب، وصوته ارتعش عندما بدأ يحدثهم عن المدينة والإنسانية. ما كان رأى ولا تخيل قبل اليوم كل ما رآه وأحصاه في قلب المدينة. رأى وفهم لأول مرة في حياته سلطان إبليس وسيادة الجور وضعف القلب الإنساني الخاوي. هنا خمسون أو ستون رجلا جيوبهم مترعة بالمال يقصفون ويشربون النبيذ دون حد. أخذوا وقد تملكتهم نشوة الراح يرفعون عقائرهم بالغناء الساقط، وينوهون في شجاعة بأشياء جارحة لا يجرؤ إنسان يخاف الله جل سلطانه أن يشير اليها. فهم أحرار سعداء شجعان لا يخافون الله ولا يخشون الجحيم ولا يهابون الموت. يقولون ويفعلون ما يشاءون، ويذهبون إلى حيث تسوقهم رغباتهم الجامحة.

اما النبيذ فصاف صفاء الكهرمان! وهو أيضا ذكي الرائحة لذيذ الطعم، لأن كل من يعب منه يطفح وجهه بالبشر ويرغب في الشراب ثانية. وهو يجزى على ابتسام بابتسام، ويتهلل غبطة كأنه يعرف أي ضلال جهنمي يختبئ تحت حلاوته.

غلى مرجل غضبه، وبكى أحر البكاء وأشجاه. ثم استطرد يقص عليهم ما رأى: (وقفت امرأة نصف عارية على منضدة وسط القاصفين، ويصعب عليكم أن تتصوروا شيئا اكثر فتنة وسحرا منها، صبى ناصر زاهر، وشعر طويل جثل، وعيون سوداء لامعة، مكتنزة محمرة، ثم سفاهة وجرأة وقحة. هذه البهيمة تبتسم فتفترعن أسنان بيضاء كالبرد كأنها تقول: (انظروا إني جميلة، ومستهترة. . .) وتتدلى من عاتقها الملابس الحريرية

البديعة المشجرة. على أن جمالها لا تخبئه ملابس، لأنه بشره يفسح لنفسه الطريق بين طيات ثوبها. . . . كأنه الأعشاب الصغيرة وهي تشق لنفسها الطريق في الأرض زمن الربيع. وتشرب المرأة التي لا تستحي النبيذ، وتغني الأغاني، ثم تستسلم بعد ذلك للمعربدين. . . .).

لوح الرجل الكهل بذراعيه حانقا ثم استمر يصف لهم سباق الخيل، وصراع الثيران، والملاعب، وحوانيت الفنانين، حيث يعرض هيكل المرأة العارية مرسوما بالزيت أو منحوتا من الصلصال.

كان الرجل في حديثه لسناً ملهماً جهوري الصوت حلو الجرس كأنه يعزف على آلة موسيقية لا تقع عليها العين. والرهبان ذاهلون عن أنفسهم غائبون عن رشدهم وقد أسرتهم

كلماته وسحرهم بيانه، فهم يلهثون من فرط السرور. ولما فرغ من وصف إغواء إبليس وفتنة الفسوق وسحر المرأة لعن إبليس ثم غادر المكان واختفى وراء بابه.

فلما خرج من صومعته في صباح اليوم التالي لم يجد راهبا واحدا في الدير. فقد انطلقوا جميعاً مسرعين إلى المدينة!!

obeikandl.com

أعصاب

عاد المهندس المعماري ديمتري اسيبوفتش فاكسن من المدينة إلى كوخه الذي يقضي فيه عطلته وهو متأثر غاية التأثر مما سمعه في جلسة استحضار الأرواح التي تشرف بحضورها!

وعندما خلع ملابسه، ومشى إلى فراشه المنعزل، ولا أنيس معه فيه ـ فقد بارحت مدام فاكسن المنزل إلى عمل يستغرق طيلة الليل ـ لم يستطع أن يطرد عن ذهنه تصور كل ما سمعه ورآه في هذه الليلة التي لم يكن الحديث فيها ممتعاً على الإطلاق! فلقد مضوا الليل كله في حديث مروع بدأته سيدة في رونق صباها ـ على ذكر لا شيء ـ بالكلام عن التفكير عند القراءة، ومن هنا تشقق بهم الحديث دون أدراك إلى الأرواح، ومن الأرواح انتقلوا إلى الأشباح،

ومن الأشباح تشعبت بهم سبل الكلام إلى أناس يدفنون أحياء . . . ! وقرأ سيد قصة مرعبة عن جثة تسير وهي مدرجة في الكفن . . وطلب فاكسن نفسه فنجانه وأخذ يشرح للسيدات الصبايا الطريقة المثلى لمخاطبة الأرواح! وأحضر من بين الموتى روح عمه كلافدي ميرونتش وسأله :

(ألم يحن الوقت بعد لنقل ملكية منزلنا إلى زوجي؟)

فأجابته روح عمه : (كل الأشياء حسنة في حينها)

وفكر فاكسن وهو مضطجع على سريره وقال لنفسه :

(في الطبيعة أشياء كثيرة . . . سرية . . . ومفزعة . . . فالمجهولات لا الأموات هي المروعة حقا)

ولما دقت الساعة واحدة انقلب فاكسن على جنبه الآخر، وأخذ يرمق من تحت غطائه نور المصباح الأزرق المحترق أمام الصورة المقدسة، وقد ارتعش لهبه، وألقى نوره الخابي على قاعدة الصورة، وظهرت أمام سريره صورة عمه كلافدي الكبيرة المعلقة على الحائط وومض هذا الخاطر في ذهنه: (وماذا. . . إذا ظهر في هذه اللحظة شبح عمي كلافدي ولكن بطبيعة الحال. . . هذا محال)

ومع أن الأشباح ـ كما نعرف جميعاً ـ خرافات من ذرية الذكاء المحدود. . . فقد ضم فاكسن غطاءه عليه حتى غطى رأسه وأغمض عينيه تماماً! على أن الجثة التي سارت وهي ملفوفة في كفنها عادت إلى ذهنه بعد برهة قليلة، ورفعت أمام مخيلته صور المرحومة حماته، وزميل له شنق نفسه، وفتاة أغرقت

نفسها أيضاً . . . وحاول فاكسن أن يطرد عن ذهنه هذه الصور السوداء ولكنه كان كلما أمعن في الطـرد أمعنـت هـذه الصـور في الثبـات ، وأحاطـت بـه خيـالات مخوفـة ، وأخـذ يحـس بالرعب المتمكن والجزع الشديد .

وقال لنفسه :

(إلى المشنقة بهذه الخواطر جميعاً . . . هأنـذا خائفـاً في هـذا الظـلام كطفـل . . . معتـوه . وسمع الساعة تدق في الغرفة المجاورة : (تـك . تك . . تك)

ورن ناقوس الكنيسة في فنائها القريب مبينـاً الوقـت . . دق النـاقوس في بـطء وانقبـاض وحـزن . . وسـرت رعشـة شـديدة في عنـق فاكسن امتدت إلى عموده الفقري ، وخيل إليـه أنه يسمع إنساناً يتنفس فوق رأسه بثقـل ! كـأن العم كلافدي قـد رأى أن يـبرح إطـار صـورته

وينحني فوق ابـن أخيـه . . . وشـعر فاكسـن بالرعب الذي لا يحتمل، فصرَّ بأسنانه، وعلـق أنفاسه في هول.

ولما قفزت حشرة من الحشـرات الطـائرة إلى النافذة المفتوحة وانقلبت تطـن فـوق فراشـه لم يستطع الاحتمال أكثر ممـا احتمـل فجـذب زر الجرس بعنف.

وسمع بعد هنيهة صـوت الحاضـنة الألمانيـة واقفة على بابه تقول بالألمانية:

(ما الذي تريده يا ديمتري اسيبفتش؟)

فصاح فاكسن فرحاً (آه . . أأنـت يـا . . . روزاليا كارلوفنا لماذا تتعـبين نفسـك؟ . . أيـن جافريلا؟ لا بد أن . . .)

(بعثت أنت بنفسك جافريلا إلى المدينـة . . وجـافريلا مضـت تقضـي الليـل في بعـض

الجهات . . . وليس في المنزل أحد سواي . . فما الذي تريده من فضلك؟)

(حسنا . . . الذي أريده . . . هو . . . ولكن من فضلك ادخلي . . . لا داعي للقلق . . أنه . . .

ظلام . . .)

ودخلت روزاليا كارلوفنا وهي امرأة بادنة حمراء الخدين ! ! ووقفت على الباب وقفة المنتظر

(اجلسي من فضلك . . . أنت ترين . . . أن الأمر هكذا . . .)

وعجب وقال لنفسه : أي شيء أسألها فيه وعنه . . ؟ وسارق صورة عمه النظر وشعر بروحه تعود تدريجياً إلى الهدوء

(الذي أوده منك في الحقيقة هو . . . آه . . لما ينطلق الخادم إلى المدينة لا تنسى أن تخبريه بأن

أ. . . أ. . . يجيء ببعض أوراق السجاير. . . ولكن من فضلك اجلسي)

(ورق سجاير. . . حسناً. . . وما الذي تريده أيضاً؟؟)

(الذي أريده. . . لا شيء أرغب فيه ولكن. . أجلسي. . سأفكر في شيء آخر بعد دقيقة)

(العذراء. . . تخاف البقاء وحيدة في غرفة رجل يا سيد فاكسن. . . فهمت! إن حاجتك إلى ورق سجاير. . . كانت في الواقع لا تستدعي إيقاظ أحد. . . فهمتك)

وانقلبت روزاليا كرلوفنا على عقبيها وغادرت الغرفة، وسكن روع فاكسن لما تحدث معها وخجل من جبنه للغاية، وغطى رأسه، وأغمض عينيه، وشعر مدة عشر دقائق كاملة بالراحة التامة، وبعد هذا زحفت إلى ذهنه نفس

الخـزعبلات الماضـية . . . فتحسـس الثقـاب وأشعل شمعة وهو مغمـض العيـنين! وأصـبح النور بعد الهلع الذي هيمن علـى كيانـه عـديم الجدوى، فقد صور له خياله المضطرب أشباحاً طلعت من الأركان وبدت عيون عمه تتحـرك . . . !!

فقرر قاطعاً:

(سأدق لها الجرس مرة أخرى . . . لعنة الله على المرأة . . . سأخبرها بأني أشـعر بالتعـب وفي حاجة إلى بعض أقراص من الحلوى)

وشد فاكس الجرس فما جاوبه أحـد . ودق ثانية فسمع جرس الكنيسة يـدق كأنمـا يجـاوب على دقاته بمثلها . واستولى عليه الرعب وشـاع في جسمه البرد فقفـز مـن فـوق سـريره وغـادر مخدعه يعـدو راسمـاً علامـة الصـليب، وأخـذ يلعن نفسه لجبنه وخوره وجرى حـافي القـدمين

في قميصه الليلي حتى بلغ غرفة الحاضنة وقال راجف الصوت وهو يطرق بابها :

(روزاليا كرلوفنا . . . أنمت؟ أشعر . . . باني ر . . . ر . . . تعب . . . أود قليلاً من أقراص الحلوى)

فما جاوبه أحد وخيمي الصمت

(أرجوك! أفهمت . . . أرجوك . . . لماذا هذا القرف؟ . . لا أستطيع أن أفهم . . . خصوصاً إذا كان الرجل . . . مريضاً . . . أي عبث . . . أنت في الحق . . . وفي مثل سنك) فقالت له :

(سأخبر زوجك . . . أنك لا تدع عذراء شريفة في أمان . . . لما كنت عند البارون انزيج . . . جاء إليَّ سعادته يطلب أعواداً من الثقاب . . . ففهمت في الحال معنى هذه

الأعواد من الثقاب . ! ! وأخبرت البارونة . . . فأنا عذراء شريفة) فقال لها :

(إلى المشنقة بشرفك هذا . . . أنا مريض . . . قلت لك هذا . . . واطلب منك بعض أقراص من الحلوى . . . أتفهمين . . إني مريض) فأجابته :

(زوجك امرأة شريفة وطيبة . . . ومن الواجب عليك حبها . . . أجل . . . إنها نبيلة طيبة . . . ولن أكون لها عدوة)

فقال لها : (إنك غبية . . . غبية . . . أتفهمين . . . غبية)

اعتمد فاكسن على سارية الباب ، طاوياً ذراعيه ، ومنتظراً أن يذهب عنه هلعه الشديدة ، فإن رجوعه إلى غرفته حيث يرتعش المصباح ويحملق فيه عمه . . . أمر لا يجرؤ على مواجهته ، وأن وقوفه على باب الحاضنة وليس

عليه سوى قميص نومه أمر غير لائق من جميع الوجوه!! فما الذي يعمله؟؟

ودقت الساعة الثانية وما بارحه جزعه؛ وكان الممر مظلماً فبدأ له خيال أسود طلع من كل ركن واستدار ليواجه عقب الباب. على أنه تصور في هذه اللحظة إنساناً جذب قميص نومه من الخلف ولمس كتفه.

فأعول ثم صاح:

(عذاب الجحيم. . . روزاليا كارلوفنا)

ولما لم يسمع صوتاً فتح فاكسن الباب متردداً ودخل؛ وكانت الألمانية الفاضلة غارقة في سبات لذيذ، وقد أظهر ضوء المصباح الخافت ما على وجهها من بشاشة، ثم انساب إلى داخل الغرفة ووقف بجانب حقيبة عند الباب، وشعر بارتياح تام وهو في حضرة مخلوق حي، حتى ولو كان هذا المخلوق نائماً

ثم قال في نفسه :

(خل الألمانية البلهاء غارقة في نومها . . . سأجلس هنا . . . وحينما يبزغ النور أرجع إلى مكاني . . فالصبح يبكر في هذه الأيام . . .)

استلقى فاكسن على الحقيبة ووضع ذراعه تحت رأسه مترقباً طلوع الفجر

وتأمل ! !

(أي شيء . . . لما يكون المرء عصبياً . . . ورجل متعلم ذكى . . . لنشنق جميعاً . . . إنه عار شنيع)

وعندما تسمع إلى تنفس روزاليا كرلوفنا الرقيق عادت إليه نفسه وثاب حسه وهدأ تماماً

وفي الساعة السادسة عادت زوجه فاكسن من عملها الذي استغرق طول الليل ولما لم تجد زوجها في مخدعه دلفت إلى الحاضنة تسألها عن (فكة) للحوذي .

obeikandl.com

ولما دخلت الغرفة رأت منظراً غريباً!!!
بصرت على السرير بروزاليا كارلوفنا غارقة في النوم. . . وعلى قيد ذراعين منها ينكمش زوجها على الحقيبة وينام نوم العادل!! ويغط غطيطاً عالياً.

أما الذي قالته لزوجها وكيف كان حاله عند ما استيقظ فسأدع لغيري تصويره فهو فوق طاقتي.

obeikandl.com